الباب الثالث

الحق في مجال التربية وإعداد النفوس

الفصل الأول :

* فيما قصه الله من أنباء الرسل عليهم السلام.

الفصل الثاني :

* فيما قصه الله من أنباء السابقين.

الفصل الثالث :

* في ضرب الأمثال.

الفصل الأول

★ **فيما قصه الله من أنباء الرسل عليهم السلام.**

الآيـــات

١ - ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦٢)

٢ - ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠)

٣ - ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف: ١٠٠)

٤ - ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(القصص: ١-٣)

قد يتبادر إلى الأذهان لماذا خصصت ما جاء في هذا الباب بهذا العنوان مع أن القرآن الكريم كله لإعداد النفوس وتربيتها أو قل لهدايتها وتبصرتها؟ قلت هو كذلك. وقد التمست عنوان هذا الباب من إشارات القرآن الكريم في مثل قوله: ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾.

نعم القرآن كله لهداية النفوس وتبصرتها. لكنك ترى نفوساً قد تستجيب للحق وتؤمن به وتدعو إليه. وهذه لها من الخطاب والتوجيه ما يثبتها ويقويها. وهى تواجه بدعوة الحق باطل عصرها وزمنها وتجابه مؤامرات المفسدين بالإصلاح وصدق اليقين. هذه النفوس تفيد من القرآن كله ولكنها تجد عزاءها وراحتها فيما تقرأ من أحوال السابقين. فمن جابه فرعون عصره يثبت قلبه أن يرى ما وقع لفرعون السابقين وما تم من مؤازرةٍ ونصرٍ للمؤمنين. ومن أَلَمَّ به الخوف لضعف عدد أو عتاد اعتصم بالله وأخذ في الأسباب لنصرة الحق دون يأس أو قنوط وهو يقرأ ما أراده الله للمستضعفين:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(القصص: ٥، ٦)

فما أذكره في هذا الباب له في تربية النفوس المؤمنة وتثبيتها أثر كبير وهى ترى سنن الله في خلقه وتبصر النتائج للمحقين والمبطلين وتعقل الأمثال وما يعقلها إلا العالمون.

﴿ **إن هذا لهو القصص الحق** ﴾. والإشارة إلى الذي قصه الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من نبأ عيسى ﴿ هُوَ ﴾ ضمير فصل للحصر ودخول اللام عليه لزيادة تأكيده. وهو يفيد أن ما ذكره في شأن عيسى هو الحق دون ما ذكره النصارى. ولذا رد عليهم بقوله: ﴿ **وما من إلـه إلا الله** ﴾. وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه.

وقد جاء بـ « مِنْ » لإفادة الإستغراق تأكيداً للرد على النصارى في قولهم ﴿ **إن الله ثالث ثلاثة** ﴾. ﴿ **وإن الله لهو العزيز الحكيم** ﴾. فلا أحد يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركه في الألوهية. ﴿ **فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين** ﴾. وعيد

لهم. ووضع المظهر موضع المضمر ليدل على أن التولى عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين والاعتقاد المؤدى إلى فساد النفس بل إلى فساد العالم»[1].

والحق أن الفساد في الأرض لا ينشأ إلا من الحيدة عن الإعتراف بهذه الحقيقة ﴿ **لا إله إلاَّ هُوَ** ﴾. وما رأيت شيئا يدمر حياة الناس ويشيع في الأرض الفساد كالشرك بالله. إنه منشأ كل شر وأصل كل فساد وهو مناف لفطرة الخلق التى فطر الله الناس عليها. والتعلق به تعلق بكذب يهوى إلى النار وباطل يقود إلى الدمار:

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣١)

﴿ **إن هذا لهو القصص الحق** ﴾. والإشارة كما قلت إلى ما قصه الله في شأن عيسى عليه السلام أي أن ما قصه الله علينا في شأنه هو الحق فلا يُلتفت إلى ما يخالفه أو يناقضه.

وفي مجال التربية وإصلاح النفوس على الناس أن يركزوا أولاً على العقيدة حتى يستقيم لهم السعي والسلوك. فإن الأعمال لا تقبل وتُؤدّي ثمارها إلا بسلامتها. ﴿ **وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾. وكل تربية تهمل هذا الجانب تقيم بنيانها على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ لا يلبث أن ينهار بأهله إلى الدمار والبوار. ولذا رأينا القرآن الكريم يبين لنا في إفاضة وتفصيل قضية الألوهية بأدلتها كما بين لنا أن الرسل جميعاً إنما بعثوا دعاة إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)

ليقطع السبل على كل مدع عليهم مسند إليهم ما لم يقولوه. ومن ينظر فى السورة

---

(١) تفسير البيضاوى.

التى ورد فيها قوله تعالى ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾. يرى أن القرآن الكريم قد بين حقيقة عيسى وولادته ونشأته كما بين ولادة امه من قبل وكفالة زكريا لها فى حديث يرى المتدبر فيه آثار قدرة الله فى خلقه ورحمته بهم واختيار من يختار لحمل الرسالة وأداء الأمانة وهم جميعا خلقه وعباده.

ولا غرابة أن يولد عيسى من غير أب. فان آدم من قبل قد خُلق من غير أب ولا أم:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩)

هذا هو الحق ومن جادل فيه فليأت إلى المباهلة. وهذا ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران حين جادلوا فى أمر عيسى. دعاهم إلى المباهلة كما أمره الله عز وجل:

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ٦١)

﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾. هكذا فى ثقة وطمأنينة يثبت الحق ويعلو ويواجه من يخاصمه بسلطانه فى حجته وقوته فلا يبقى لمعاند عذر ولا لمبطل حجة. ولذا جاء الإعلام بعد هذا أن من مال عن هذا الحق أو تولى عنه فهو مفسد والله عليم به يجازيه ويأخذه أخذ عزيز مقتدر:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٦٣)

وهل من انصاف يرجى فى معاملة الخلق وإصلاحهم أكمل وأبر وأصدق من هذا الإنصاف الذى يحمله هذا النداء:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)

إنه نداء يأتي بعد بيان ما هم عليه من قضية الالوهية. وهو نداء بار رحيم يدعو إلى الإنصاف فى ثقة وإلى اتباع الحق فى ثبات وإلى عبادة الله فى غير ميل عن الحق أو إشراك وإلى مساواة الناس فى أصلهم ونشأتهم ومصيرهم حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يكون ذلك إلا بمعرفة أنفسهم وخالقهم وخضوعهم له جميعا بالعبادة والطاعة.

وهذا النداء يُتلى صباح مساء على الناس جميعا ويتردد على سمعهم يعلن الحق. ويقذف به فى وجوه الضالين ليردهم إلى الحق ويعصمهم من الفساد.

والمتدبر فى هذا القصص القرآنى المستجيب لنداء الحق يقشعر جلده ويلين قلبه وهو يجد نفسه أمام كلمة سواء لا تفتح بابا لطاغ أو مستبد أو راغب فى علو أو فساد فى الأرض: **﴿ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾**.

ان العناية بأمر العقيدة على هذا النحو عناية بتربية الانسان بالمنهج والسلوك لأن المنهج بغير عقيدة باطل وإن صح والسلوك بغير غاية مضيع وإن استقام. ومن أراد الإصلاح فعليه أن يعنى بالاعتقاد حتى تعز النفس وتسلم من لوثة الشرك وما يؤدى إليه من توزع النفس وتمزقها بين سبل الباطل وآلهته. ان الخشية من الله نتاج معرفته ومعرفة الله حق معرفته تتوقف على التزام ما جاء به الوحى وبعث الله به الرسل. وقيمة الانسان وتميزه عن غيره فى الإيمان بالغيب ولا مجال فى الغيب لظن أو تخمين وإنما هو الصدق واليقين. والله لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.

ومن رحمة الله بخلقه أن جعل من آياته فى المنظور المشاهد فى الآفاق وفى الانفس ما يدل على الحق فى أمر الغيب مما أخبرنا به ودعينا إلى تصديقه والإيمان به. وقيمة الإنسان كما قلت فى هذا الايمان لا فى علمه بظاهر الحياة من أسباب متاعه ومعاشه. فان أبسط المخلوقات يقدر على ذلك، وربما كانت قدرته وتدبيره ـ بإلهام الله ـ أقوى من تدبير الانسان. وسبحان من ﴿ **أعطى كل شىء خلقه ثم هدى**﴾.

وتدبر ذلك ـ إن شئت ـ فى أمر النحل أو النمل أو الاسماك أو الطيور. وكم تعلم الإنسان من أمرها ما هو به فخور.

فالسمك يسبح فى ظلمات البحر مسافات لغاية يحققها يعرف طريقها ويعرف كيف يعود. والطيور تهاجر إلى أماكن بعيدة وتدرك بما ألهمها الله مواطن الأخطار وتقلبات الرياح فتحتاط لنفسها وتسلك الطريق الآمِنَ لسيرها أو تتوقف حتى تتثبت وتطمئن. كل ذلك وغيره تفعله هذه المخلوقات وهى ميسرة لما خلقت له. والانسان وهو مكرم ومفضل على كثير. يعلى قيمته ويرفع قدرة إيمانه بالغيب وقد زود بما يحقق له ذلك ويصل به من المقدمات إلى النتائج. فتلك ميزة انسانيته وهو يخاطب بالآيات وموطن سموه ودلالة فضله.

والحديث عن عيسى عليه السلام وامه وحقيقة أمره وما دعا اليه حديث عن غيب مضى. فمن قَبِلَ فيه كلمة الوحى كما جاءت من عند الله فقد سلم من ضروب الجهل وسبل الهوى. ومن أبى إلا أن يتخبط فى الحديث عن الغيب بمحض هواه عناداً واستكباراً فقد قال على الله غير الحق وسلك طريقاً لا برهان له به ولا حجة من نقل أو عقل. وأى عذر للخلق بعد بيان الحق. وأى جهل يُعْذَرُ بِهِ هؤلاء من بعد ما جاءتهم البينات. إن لكل معرفة بابها وسبيلها. وسبيل معرفتنا وايماننا بالغيب هو الوحى. وقد حفظه الله أمام أعيننا لتبقى الحقيقة أمام الناس ناصعة لا لبس فيها ولا خفاء.

والتربية الصحيحة تأبى أن تختلط أو تلتبس وسائل علمنا ومعرفتنا فما كان من أمر الغيب علينا أن نقف فيه عند ما جاءنا به الرسل وأن نسمع ونطيع. وما كان من شئون

دنيانا فنحن مزودون بحواس تعيننا على أن نفيد بها خلق الله لنا وسخر. وليس معنى هذا أن نسلم عقولنا دون تفكر أو تدبر فهذا ما لا يرضاه الدين أو يقبله الرسل عليهم السلام. وهو مناف لحقيقة المعرفة وما أمرنا به من قبل الله عز وجل:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ (سبأ: ٤٦)

واذا تفكرنا فيما جاءنا به الوحى. ونظرنا فيما ألقت به الأهواء. وجدنا العقل يعود مع الوحى مؤمنا أنه «**لا إله إلا هو**». وقد سَلِمَت له الحجة والبرهان وغنم بالطمأنينة واليقين. ورأيناه مع ما ألقت به الأهواء كئيبا كليلا لا حجة معه ولا برهان فأى الأمرين أسلم للنفس. سبيل نرى فيه منارات الهدى. أم سبل لا ترى فيها إلا ظلاما يموج فى ظلام.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ (الأنعام: ١٥٣)

﴿**إن هذا لهو القصص الحقُّ وما من إلـهٍ إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم**﴾.

ان ما قصه الله علينا من أنباء الرسل هو الحق. والحق جدير أن يتبع. والتربية التى لا تقوم على الحق لا يستقيم بها سعى ولا يطهر سلوك. والرسل وهم صفوة الخلق لابد أن تعرف رسالتهم وتحفظ سيرتهم لتحسن القدوة بهم وتبقى للأجيال كلها عبرة لأولى الألباب وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠)

وهذه الآية من خواتيم سورة «هود». وقد قص الله فيها على نبيه من أنباء الرسل نوح، وهود، وصالح، وابراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى ما قص. وما جاء فى

قصص القرآن هو الحق الذى لا مرية فيه ومنهُ تعرف سنن الله فى خلقه. ويُدرك كلُّ داع إلى الله فى أى عصر وفى أى زمن ما يحيق بمن يكذب الرسل فكم من حضارات قامت فى الأرض ثم بادت لأن أهلها كفروا بآيات ربهم وعصوا رسله. فأحاطت بهم خطاياهم وأهلكهم الله بذنوبهم.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الانفال: ٥٢، ٥٣)

فالقصص القرآنى ـ وهو الحق ـ آية للخلق فيه عبر وعظات وذكرى تنفع المؤمنين. وهو يخاطب الأجيال بما هو ماض فى الخلق من سنن لا تحابى ولا تجامل ولا تتبدل ولا تتحول:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾ (محمد: ١٠)

والقرآن الكريم حين يذكر لنا قصص الأنبياء يبين لنا ما وقع بالمكذبين من أقوامهم لتحذر الأجيال أن تفعل فعلهم أو تسلك سبلهم ويرينا آثارهم قائمة بدونهم أو مدمرة مأخوذة بذنوبهم. وكل ذلك فيه من العبر والعظات ما فيه.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً

لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (هود: ١٠٠ - ١٠٣)

ولذا فان القصص القرآنى - وهو الحق - له اثره البالغ فى تربية النفوس وإعدادها وتقويتها وتثبيتها على الحق. يخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم. أولا - وقد قصه الله عليه - فيثبت به فؤاده ويطمئن قلبه وهو يرى العاقبة للمرسلين والهلاك والدمار للمكذبين. ويؤمر الرسول بأن يتلو ما أوحى إليه من كتاب ربه وأن يبلغ ما أنزل إليه. ويسمع المؤمنون ما أنزل إلى الرسول وهم يمرون بشدة أو محنة يرون فيها صلف الباطل وطغيان أهله - فتطمئن قلوبهم وتثبت على الحق وهم يعلمون أن العاقبة للمتقين وأن الدمار والهلاك للمفسدين.

ومعلوم أن كثيرا من هذا القصص قد أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون مستضعفون فى مكة يخافون أن يتخطفهم الناس. فانظر ما يؤديه هذا القصص وهو يتلى على النبى من أثر فى نفسه وفى نفوس أصحابه وهم يرون نتائج الثبات على الحق والتواصى بالصبر وما ينتهى إليه أمر اولئك المصرين على الكفر المستهزئين بأهل الإيمان. إنهم لازالوا فى فترة ضعف وأعداؤهم من الكافرين يتخذونهم سخريا وينالون منهم ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء. وهم يؤملون أن يجعل الله لهم فرجا ومخرجا وهم فئة قليلة وعدوهم فى جمع كثير وما اعتاد الناس أن تنتصر القلة على الكثرة والضعف على القوة. فإذا علموا من القصص القرآنى - وهو الحق - أن أمر الله إذا جاء لا يتوقف على ما اعتاده الناس فقد تغلب فئةٌ قليلةٌ فئةً كثيرةً بإذن الله ، وقد تلد عجوزٌ وينجب شيخ إذا علموا ذلك - ازدادوا إيمانا وثباتا على الحق وهم يرون أن ذلك قد وقع على غير ما كانت تتوقع العجوز أن يكون .

وهى تقول - كما ذكر القرآن الكريم - وقد بُشّرت بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب -

﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ

﴿ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ (هود : ٧٢ ، ٧٣)

لا عجب من أمر الله فقد تنتصر الفئة المستضعفة ويهزم الجمع ومشيئة الله نافذة وأمره كائن :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الاعراف : ٥٤)

عندئذ لا تشغل نفس المؤمن ـ هو يسمع ما أنزل إلى الرسول ـ بعداوة الأعداء وإنما تشغل بالأسباب التى تحقق الفوز وتجلب النصر .

وهذا ما خوطب به الرسول صلى الله عليه وسلم وامر بتحقيقه فى نفسه كما أمر به المؤمنون :

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (الاحقاف : ٣٥)

إعداد النفس هو الأصل فيما يطلب من فوز أو نصر . والنصر من عند الله وحده وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته . وهو فى حقيقة النفس لا فى كيد العدو :

﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ (آل عمران : ١٢٠)

وهذا ما يوحى به القصص القرآنى وهو يتلى على المؤمنين فيرون فيه عاقبة المحقين والمبطلين .

فقصة نوح عليه السلام يرى فيها الإنسان مقدمات الامور ونتائجها وهى دروس لا غنى للمؤمنين عنها .

نوح عليه السلام لبث فى قومه زمنا طويلا . لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . ومن بداية الامر قد أنذرهم وبين لهم العواقب والنتائج كما أمره ربه :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾

(نوح : ١ - ٦)

إصرار واستكبار قابلوا به دعوة نوح عليه السلام كلما دعاهم .

﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح : ٧)

هذا حالهم مع طول مكثه فيهم وصبره عليهم وتحذيرهم من سوء عاقبتهم لكنهم تمادوا فى ظلمهم وطغيانهم فكان الجزاء : ﴿ **فأخذهم الطوفان وهم ظالمون** ﴾ .

درس بليغ فى تربية النفوس وإرشادها إلى الحق . وهى تعرف سنن الله فى خلقه فتتبع سبيل المؤمنين وتجتنب سبل الضالين المكذبين . درس تبقى ذكراه مع الزمن كله عبرة لمن يعتبر :

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٥)

والقرآن الكريم حين يرينا هلاك المكذبين يرينا فى الوقت نفسه نجاة المؤمنين وهم

فى سفينة وعلى ظهر الماء الذى أخذ عدوهم - تجرى بهم فى موج كالجبال والماء قد ارتفع مده وعظم موجه . يتابع أهل الكفر فيأتى عليهم ولو اعتصموا برءوس الجبال . ويؤانس أهل الإيمان ويبر بهم - وهم فى رحمة الله - ولو جرت سفينتهم فى موج كالجبال. والماء هو الماء يؤمر بإكرام ناس واغراق آخرين. وهو طائع مسبح بحمد ربه يحقق ما يؤمر به . فسبحان من له الخلق والامر . يأمر الماء فيأتى على من شاء اغراقه . ويحيى باذنه ما شاء حياته . ويصدر الأمر إلى الأرض بأن تبلع ماءها وإلى السماء بأن تمسك وتقلع . والكل مستجيب طائع لا ينبغى له أن يتأخر أو يخالف :

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(هود : ٤٤)

هذه النتيجة التى ذكرت هنا من نجاة أهل الايمان وحسن عاقبتهم وهلاك أهل الظلم وسوء عاقبتهم تراها فى سنن ماضية لا تتبدل ولا تتحول مع قوم هود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى عليهم السلام ترى أقوامهم قد أخذوا بذنوبهم وهلكوا بمعاصيهم :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٠)

وفى المقابل ترى النجاة والنصرة وحسن العاقبة لأهل الإيمان مهما طال الزمن :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾

(غافر : ٥١)

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصافات : ١٧١ - ١٧٣)

وهذا ما تضمنته سورة هود عندما ذكرت هذا القصص وقصت علينا أنباء الرسل فقدمت لنا العظات والعبر وأرتنا ما فى حياة الناس من سنن.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠)

والإشارة فى قوله : ﴿ وجاءك فى هـذه الحق ﴾. إلى السورة «سورة هود» أو إلى الأنبـاء . (أنبـاء الرسل). وكل ذلك حق وصدق . وبالحق وحده تكون التربية ويكون الإعداد. وبالحق تثبت القلوب وتطمئن النفوس. وبالحق تحسن العواقب لمن تمسك به وتسوء لمن خالفه أو أعرض عنه .

ومن سورة هود إلى سورة يوسف لنرى العواقب والنتائج لمن تمسك بالحق واتقى ربه وصبر ولمن آثر الباطل واحتمى بالكذب والمكر والكيد . نرى كيف بطل الكذب والكيد وظهر الصدق والحق . لان الحق ثابت مستقر لا تزعزعه عواصف الباطل ولا تحجب نوره ظلمات الكيد والمكر. فمن كذبت من قبل وكادت ليوسف عليه السلام هى التى قالت : ﴿ الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾. أى ثبت واستقر وتلاشى كيدها . ومن جاءوا على قميص يوسف بدم كذب جاءوا به الى والده ليقنعوه بان الذئب قد أكله . هم الذين وقفوا بين يديه طالبين يقولون له :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (يوسف : ٨٨)

ولما أذهلتهم المفاجأة حين :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (يوسف : ٨٩)

وعلموا أنه يوسف حين قال لهم : ﴿ **أنا يوسف وهذا أخى** ﴾ . ما كان منهم إلا أن أعلنوا مقسمين أن الله فضله عليهم وأعزه وأذلهم بالوقوف بين يديه :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (يوسف : ٩١)

وانتصر الحق وبطل الكيد :

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف : ٩٠)

ومن قبل قالت امرأة العزيز إن يوسف على الحق وهى على الباطل حيث قالت قبل أن يخرج من سجنه . ﴿ **الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ . قالت ذلك دون تأثير عليها أو إغراء لها لأن سلطان الحق أقوى من أن يختفى فى زبد الباطل . وهذا ما أراده يوسف قبل أن يخرج من سجنه حين جاءه الرسول من قبل الملك . ﴿ **قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم** ﴾ . فكانت الإجابة منهن فى جانب الحق وكان الاعتراف منها قاطعا لكل مقال وانتصر الحق وتلاشى الباطل ولم تفده سجونه وما احتمى به من قوة الملك والسلطان .

بل رأينا الملك يستخلفه لنفسه ليخرج من سجنه أمينا على خزائن الارض بعد أن كان سجينا . ويوسف عليه السلام يعرف فى جميع الأوقات والمواقف التى مرت به أن اعتصامه بالله هو السبيل لدفع الكيد ورفع الظلم وحسن العاقبة وذاك هو سلاح الحق الذى انتصر به . وقال لابيه تحدثا بنعمة ربه :

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف : ١٠٠)

وترى يوسف مع تقلب الأحوال ثابتا على الحق يطلب من ربه أن يمن عليه وأن يلحقه بالصالحين :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (يوسف : ١٠١)

أليس فى ذلك كله عبرة لاولى الالباب ؟ وأى عبرة أعظم من أن نرى العواقب والنتائج فى جانب الحق دائما وإن ضعف أهله أو قل جنده .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(يوسف : ١١١)

حديث الحق هدى لمن يؤمن بالحق ورحمة لهم أما الذين يتبعون الباطل فلا يزيدهم إلا خسارا .

﴿ طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(القصص: ١-٣)

ونبأ موسى وفرعون الذى قصه الله علينا فيه دروس للأغنياء والفقراء . للمتكبرين والمستضعفين . للحكام والمحكومين . للكبار والصغار . للرجل والمرأة . قصة تنفذ إلى أعماق النفس بما فيها من دلالات وعبر . وفى جميعها ترى عمل القدرة الالهية .

والعلم المحيط بكل شيء . فان هلاك فرعون ومن معه لم يتم بجيوش يصارع بعضها بعضا. وإنما تم بأخذ من الله وإهلاك منه ـ وفرعون فى قمة كبره وصلفه وتسلطه وبغيه :

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾

(القصص : ٣٩ ـ ٤١)

وتأمل وأنت تقرأ : ﴿ **فأخذناه وجنوده** ﴾ . ﴿ **فنبذناهم** ﴾ . ﴿ **وجعلناهم** ﴾ . تراها جميعا ضمائر العظمة وأفعال العلى القدير. وتذكر معها ما كان يقوله فرعون قبل أخذه وهلاكه :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(القصص : ٣٨)

ونجاة موسى عليه السلام ومن معه لم يتم بتهيئة أسباب من جانب موسى ولو بصنع سفينة كما أمر نوح عليه السلام. ولم تقع مقاومة من جانب قومه حين وصل فرعون بجنده وتراءى الجمعان بل قالوا لموسى ـ وقد رأوا البحر أمامهم والعدو الباغى من خلفهم ـ إنَّا لَمُدْرَكُونَ :

﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب

بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء : ٦١ - ٦٧)

وتدبر أيضا الضمائر : فأوحينا . وأزلفنا . وأنجينا . ثم أغرقنا . تراها كلها ضمائر العظمة وأفعال العليم القدير فى إهلاك هؤلاء وإنجاء اولئك . وكل ما فعله موسى أَنْ نَفَّذَ أمر الله فى ضرب البحر بعصاه . وما ذا تفعل عصا موسى بالبحر حتى ينفلق ويكون كل فرق كالطود العظيم إنه عمل القدرة الالهية وأمر الخلاق العليم :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(يس : ٨٢)

وحفظ موسى فى ولادته وإرساله إلى فرعون فى صندوق يحمله الماء والوحى لأُم موسى أن ترضعه فإذا خافت عليه ألقته فى اليم ووصوله إلى هناك والتقاطه من آل فرعون . كل ذلك لم يكن بتدبير بشر - وما كان لهم أن يستطيعوا ذلك لو أرادوا - وإنما كان بتدبير العليم القدير :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ
فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ
لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ ﴾ (القصص : ٧ ، ٨)

وتدبر الضمائر : وأوحينا . إنا رادوه اليك . وجاعلوه . تراها ضمائر العظمة وهى تعود إلى الله عز وجل . ومن ذا الذى يلقى ابنه فى اليم ولايخاف ولا يحزن ؟ . ومن ذا

الذى يعلم ما فى قلب الأم فيلقى بالطمأنينة إليه ويربط عليه ؟ إنها العناية الالهية . والحفظ الالهى . ومن حفظه الله لا يضيعه الناس :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ (طـه : ٣٨ ، ٣٩)

وها نحن نرى امرأة فرعون تقف موقفا لا يمكن أن يكون من عند نفسها وإنما هى المحبة التى القيت من قبل ربها لترد عنه سكين الذابح فى عام يذبح كل مولود يولد من بنى إسرائيل :

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

(القصص : ٩)

وموسى نفسه ـ وهو الرضيع الذى ينشد الرضاع ـ من الذى جعله يصد عن المراضع ولا يقبل أىَّ ثَدْىٍ يقدم إليه . حتى يعود إلى أمه مكرما معززا فترضعه مكرمة معززة وتأخذ أجرا .

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القصص : ١١ ـ ١٣)

وتـدبر الضمائر : وحرمنا . فرددناه . إنها ضمائر العظمة الالهية . وأفعال الخلاق العليم الذى وعد بحفظه ورده وجعله من المرسلين . ﴿ **إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ .

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(القصص : ١٣)

ذاك من نبأ موسى وفرعون الذى قصه الله علينا على ما كان عليه وكأنه حاضر أمام أعيننا نشاهده لا يحجبه عنا بعد زمان أو مكان وسبحان من أحاط بكل شيئا علما .

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(القصص : ٣)

والمؤمنون وحدهم هم الذين ينتفعون بما فى هذا القصص من عبر وعظات وهو محفوظ بحفظ الله فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يبصر الناس ويعلمهم سنن الله فى خلقه وما يجب ان يكونوا عليه فى جميع شئونهم من معرفة الله وخشيته . ويحذرهم من الذنوب والآثام ويريهم عاقبة الظلم ومصارع الظالمين .

قصة ترى فيها الوليد الرضيع وترى فيها الأم تخشى على رضيعها فى وقت يذبح فيه كل مولود من بنى اسرائيل . وترى أخت الرضيع تتحرك فى هذا الجو المشحون بالفزع والرعب . وترى آل فرعون وهم يحملون الرضيع إلى امرأة فرعون ويطوفون به للبحث عن مرضع يقبل ثديها ولا يستقرون حتى يعود إلى أمه وهم لا يشعرون . وترى فرعون بتدبيره وحرصه وبغيه خادما بملكه لهذا الرضيع وهو لا يدرى أن الوليد الذى خافه على نفسه يأتيه ليُرَبَّى فى قصره يحفظ برعاية الله ويصنع على عينه . ونرى امرأة فرعون فى هذه القصة مثلا حيا من بداية أمرها إلى نهايته مثلا حيا للمؤمنين وترى العواقب والنتائج فيخشع قلبك للحق الذى جاءت به آيات ربك ودعت إليه . وحيثما كنت وعلى أى حال كنت فلك فيها عظة وتبصرة .

إنها قصة تنفذ بعبرتها الى أعماق النفس فتئد الشر قبل أن يولد وهى ترى عاقبته ومصرع أهله . وتنفذ إلى قلب المستضعف فتعلمه كيف يستمسك بمرضاة ربه وهى تريه منة الله على المستضعفين فى الأرض فتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين . وتنفذ إلى قلب الأم المفزعة بالبغى والظلم والتسلط فتعلمها كيف تلجأ إلى الله وتعتصم به وهى ترى أم موسى تحاط بحماية ربانية فى أشد لحظات الفزع والظلم والتسلط . تُطَمْئِنُ قلبها وتحفظ وليدها وتعيده إليها لترضعه بأجر وتكريم وتُحَوِّل المتسلطين إلى خَدّامين .

قصة تنفذ إلى قلب الحكام حيث كانوا فتعلمهم أن مافى أيديهم يهدده طغيانهم وتبيده معاصيهم وتعصف به ذنوبهم وهم بذلك يؤخذون ويهلكون :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(الانفال : ٥٢)

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾

(الانفال : ٥٤)

قصة تنفذ إلى قلوب المحكومين فتعلمهم أن طاعة الحكام فى معصية الله تسوقهم معهم إلى الدمار والبوار :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٥ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾

(الزخرف : ٥٤ ـ ٥٦)

قصة تعلم كل إنسان أن ينظر إلى العواقب فيحسن المقدمات ولا يسىء. ولا يقف عند الرغائب فيركن إليها وينسى سوء عاقبتها.

قصة تعلم الجميع أن بساط دنياهم سيطوى وأنهم قادمون على دار البقاء ولا أمن لهم فيها إلا بصدق الإيمان واستقامة السلوك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الانعام : ٨٢)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت : ٣٠)

وإذا انتهت فترة الحياة الدنيا لم يبق للإنسان فيها إلا ما ترك وراءه من ذكر حسن أو قبيح . يذكر به فى الناس فيدعون له . أو يسخطون عليه. لقد مضى فرعون بلعنات الدنيا وعذاب الآخرة . وطوى بساط ملكه كأن لم يكن . وانتقل ما ادعاه لنفسه وهو يقول : ﴿ **أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى** ﴾. انتقل إلى من استخلفهم الله من بعده لينظر كيف يعملون . وسينتهى ميراث الارض ومن عليها لله الواحد القهار : ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون** ﴾. ولقد بقيت امرأة فرعون بذكراها وطيب سيرتها وصدق إيمانها مثلا للمؤمنين :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم : ١١)

أما موسى عليه السلام الذى استهدفه فرعون من قبل ولادته فقد اختاره الله رسولا من المرسلين وجعل الايمان برسالته أصلا فى الايمان بجميع المرسلين.

﴿ لا نفرق بين أحدٍ من رسله ونحن له مسلمون ﴾ . فمن كذب رسولا منهم فقد كذب المرسلين . ومن بداية الأمر إلى نهايته ترى الحق وحده هو الذى بقى فى حياة الناس ومكث فيهم وذهب الباطل جفاء ـ زهق كلما بدا ـ فى كل حين .

والقرآن المجيد يرينا كل ذلك ليُعْلَم ما للحق من ثبات وبقاء وما فى الباطل من غثاء وجفاء حتى لا يركن أحد إلى باطل أو يستبطىء أحدٌ نصرة حق . فإن الله لا يعجل بعجلة أحد فالباطل زاهق لا محالة . ومن اتبعه زهق معه .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ (محمد : ١ ـ ٣)

وما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وما تلى عليه من نبأ موسى لم يأت به من عند نفسه ولا علم له به من قبل :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص : ٤٤ ـ ٤٦)

ان الحديث عن نبأ موسى جاء فى القرآن الكريم مفصلا من أحداث ولادته ونشأته وتوجهه تلقاء مدين وهجرته ومناداته من شاطىء الوادى الأيمن وبعثته . وإرساله إلى فرعون وملئه وما قاله له وما وقع منه وما انتهى اليه . كل ذلك يتلى على النبى صلى الله عليه وسلم ليكون للأجيال من بعد وحيا محفوظا لا ينقطع . وإنذارا لا يتوقف . وبيانا ثابتا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . حتى غدونا بنور القرآن مع

الزمن كله نبصر الوقائع ونرى الحقائق وننظر السنن ونأخذ العظات والعبر.

وهـذا البيان الذى يتلى على النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس ـ شاهد برسالته وأن ما بلغه للناس قد أنزل عليه من ربه . فما كان صلى الله عليه وسلم حاضرا المكـان الذى أوحى الله فيه إلى موسى ولا كان من جملة الشاهدين للوحى إليه . بل هى القـرون الكثيرة أنشأها الله بعد عهد الوحى . فتطاول أمد انقطاع الوحى على القرن الذى بعث فيه النبى فأرسله الله رحمة للخلق وعلمه ما لم يكن يعلم وقص عليه من أنباء الرسل . فانقطعت بإرساله الحجة وبطلت المعذرة وتبين الحق من الباطل .

ومن تدبر أمر هذا القصص أخذ من كل شىء درسا يهديه إلى ربه وعبرة يخاطب بها نفسه ليردعها عما ترغب وتسوء عاقبته . ويردها إلى ما يحق لها وتحسن عاقبته .

ولا شىء يؤثر فى إعداد الناس وتربيتهم كالعبر التى تؤخذ من العواقب والعظات التى تستنبط من الواقع .

ومن علم أن لله سننا فى خلقه لا تحابى ولا تُجامل ولا تتبدل ولا تتحول اتبع السبيل التى توصله لرضا ربه وتجنب السبل التى تبعده عن سبيله وتوصله إلى سخطه وغضبه .

ومن أيقن أن وعد الله حق صَبَرَ وَصَابر . واعتصم بالله فى جميع أمره وأخلص له قصده وعمله واستمسك بالحق وثبت عليه واستعان بالله وحده حتى لا يستخفه أهل الباطل أو يستدرجه دعاتُه أو يستفزه شياطينه .

ومن تدبر القرآن الكريم ـ وهو يقص علينا أحسن القصص ـ علم أن الباطل قد يستدرج وتفتح له أبواب كل شىء فيفتن به من يفتن ثم لا تلبث النتائج أن تأتى مصححة للمفاهيم بحيث ترى الذين فتنوا بزينة الباطل يقولون ـ حين رأوا مصيره ـ لولا أنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّه لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . بل ترى فرعون نفسه حين أدركه الغرق يقول : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ .

وهكذا لا ترى للباطل ثباتا ولا بقاء. بل تراه يزهق بالحق. وترى الحق منتصرا حتى فى نفوس أولئك الذين خُدِعوا بالباطل وهم يعلنون إيمانهم به عندما تحدد المصاير وتظهر النتائج ويحق الحق ويبطل ماكانوا يفتنون به ويعملون له.

والقرآن الكريم - وهو يرينا النتائج والعواقب - يجعل ذلك آية للأجيال كلها وإن غفل كثيرٌ من الناس عنها:

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (يونس : ٩٢)

ومع الغفلة يجد الباطل مدخلا إلى النفوس فيلهيها بالمتاع ويفتنها بالزينة وينسيها ما هى مقبلة عليه فتؤخذ بسنة الأولين وتكون مثلا للآخرين . . تذكرة لمن اتقى وعبرة لمن يخشى . ويطوى جيل ويأتى جيل . والحق الذى يخاطب به الناس هو هو لا يتبدل ولا يتغير والآيات قائمة والعبر ماثلة. والأشياء بقيمتها لا بزينتها والامور بعواقبها لا بمقدماتها :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ (القصص : ٦٠ ، ٦١)